القسم الثالث
الحياة العلمية والفكرية والثقافية

نكتب في عصر العلم والمعرفة والاختراع ، والتطور الصناعي ، وغـــزو الفضـــاء ، وثـــورة الاتصالات ، وعبقرية الإعلام ، وكثرة الجامعات ومراكز العلم والبحث والمعرفة ومراكز التواصل الحضاري ، والتقنيات المتناهية بالإبداع والدقة والصغر وعصر الكمبيوتر ، والإنترنت ، وباختصار عصر سيادة العقل البشري في تسيير أمور العالم . أين نحن من هذا كله ، ومَنْ من المسلمين يساهم في أي مجال من المجالات المذكورة آنفاً ، وما هي إمكاناتنا لتلحق بالعالم المتسارع ربما نحو الفناء ، إذ أن اختراع أدوات الدمار تساير تماماً اختراع أية سلعة أخرى ، وربما يسخر كل هذا في خدمة التفوق العسكري بالسلاح وبأدوات التدمير المتناهية يوماً بعد يوم . حتى أن بعضاً من الدول لديها من مخزون أسلحة الدمار الشامل ما يكفي للأرض وللزهرة وعطارد . أين نحن من كل هذا ، وما هي إمكاناتنا وأحوالنا وتحريك عقولنا .. ؟ نريد أن نجاري على الأقل إن لم يكن بمقدورنا التفوق.

الطب في ثورة وتطور ، العلوم المرتبطة به في زحف هائل .. الرياضيات تجـــاوزت العقـــول البشرية باختراعات الحاسوب القادر على حل ملايين المسائل في أقل وقت ممكـــن ، الفيزيـــاء ، الفلك ، العلوم التطبيقية كل يوم في تنوع وإبداع . وكذلك العلوم الإنسانية كل وقت في عطـــاء متجدد ومبدع؛سواء بالأدب أو الفن أو التاريخ أو الفلسفة أو علم النفس أو أي علم يرتبط بهذا . نعم هذا هو العالم اليوم .. ولكن ... ماذا عند العالم من تخلف ؟. هنا نقف لنقول عـــن علـــم التوحيد . العلم الحق الكامن وراء أسرار الكون والأرض والحياة وبعد الممات .. علـــم التوحيـــد الذي تخبط به الأولون ومازال الحاضرون في أسوأ معاقله .. هذا العلم الذي هو الأســـاس لكـــل معرفة ، الأساس لكل عطاء ، الأساس لكل منطق .. الأساس لمعرفة الوجود والغاية من الوجود ، وما هي حدود وأبعاد الموجود وغير المرئي من الوجود .. كل هذا .. بقي في الواقع في نقطة عمياء أعمى الشيطان الناس عن معرفته أو على الأقل الحديث عنه .. وتمكنت الجهالـــة عنـــد أولئـــك "أصحاب العولمة " والذين سادوا العالم بعلومهم ، وتطور أسلحتهم ، ومخابراتهم وأساليب كـــل معطيات علومهم . نقول : الجهالة بالله والكون والحياة والممات والمال ، فهم جميعاً في هذه التعابير يسيرون على غير هدى من الله ، بل بما وصلوا إليه من معارف وعلوم وتقنيات . ونقول أيضـــاً : وندلل على قولنا ببعض آراء في هذا المجال فالخيرية التي أرادها الله تعالى وأقرها في الحيـــاة لأمـــة

الإسلام جاءت من أمر متقدم وهو التوحيد : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ** (١١٠) ﴾ [آل عمران] .

التوحيد نوعان : توحيد الربوبية وهو أن الله سبحانه متفرد بالخلق والتدبير عن الملائكة والأنبياء وغيرهم ،وهذا حق لا بد منه لكن لا يُدخل الرجل في الإسلام بل أكثر الناس مقرون به ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** (٣١) ﴾ [يونس] .

وأن الذي يدخل في الإسلام هو توحيد الإله وهو ألا يعبد إلاّ الله ، لا ملكاً مقرب ولا نبياً مرسلاً ، وذلك أن النبي ﷺ بعث والجاهلية يعبدون أشياء مع الله ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يدعو عيسى ، ومنهم من يدعو الملائكة ، فنهاهم عن هذا وأخبرهم أن الله أرسله ليوحد ولا يدعى أحد لا الملائكة ولا الأنبياء ، فمن اتبعه ووحد الله فهو الذي شهد أن لا إله إلا الله ، ومن عصاه ودعا عيسى أو الملائكة واستنصرهم والتجأ إليهم فهو الذي جحد لا إله إلاّ الله مع إقراره أنه لا يخلق ولا يرزق إلاّ هو [1] .

واعلم أن المشركين في زماننا قد زادوا على الكفار في زمن النبي ﷺ بأنهم يدعون الملائكة والأولياء والصالحين ، ويريدون شفاعتهم والتقرب إليهم وإلاّ فهم مقرون بأن الأمر لله ، فهم لا يدعونهم إلاّ في الرخاء ، فإذا جاءت الشدائد أخلصوا إلى الله . قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** (٦٧) ﴾ [الإسراء] .

واعلم أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده ، فأولهم نوح عليه السلام أرسله إلى قومه لما غلوا في عبادة الصالحين وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً .. وآخرهم محمد ﷺ الذي كسر هؤلاء الصالحين ، أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله. يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله ، ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين ، فبعث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ، ويخبرهم أن هذا التقرب

---

(١) في عقائد الإسلام : من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب - منشورات دار الآفاق الجديد ، بيروت ، ط أولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١م ص ٢ - ٣ .

والاعتقاد محض حق لله تعالى لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما، وإلاّ فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له ، وأنه لا يخلق ولا يرزق إلاّ هو ، ولا يحيي ولا يميت إلاّ هو ، وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره [1] .

يقول الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية [2]: يحتجون بالعلم ، وهذا العلم لا ينفي شبهة ، ولا يحل مسألة مما هو فوق العقل ، ولا بد أن يكون للعقل (فوق) وإلاّ كان هو تحت المادة وسَطَتْ هي عليه ، وأصبحت الحياة بلا غاية ، والإنسانية بلا معنى ، وهذا العلم كيف اعتبرته إن هو إلا ترجمة جزء من الوجود إلى الكلام والعمل فهو لا يوجد شيئاً غير موجود ؛ وإنما يكشف عن الموجود ، ويتسع في العبادة عنه ويحاول جعله كلاً بنفسه ، وما هو إلاّ ظاهرة من جزء من كل مما وراء الكل ، فمن ثم كان من طبيعة البحث العلمي أن يستجر الفاسد الصحيح ، ويخلط اليقين بالظن ، ويضرب المقطوع به في المشكوك فيه ، ومتى استقام هذا فصار عملاً ، وانشق فرجع نظاماً ، خرج إلى تشبيه الباطل بالحق ، وتلبيس الخطأ بالصواب ، فيكون من العلم ما هو علم وقف وجهل وقت بعده ، ويعد منه ما هو حق في زمن ، على حين أنه شبهة زمن يتلوه. وهكذا ترى في الزمن العقلي شبيهاً بما يتعاور الزمن الحسي من تقلب الليل والنهار ، فلا يزال لكل أبيض تليهُ الأسود ، ولكل أسود تليه الأبيض إذا كان لا بد من طبيعتين إحداهما تجمع والأخرى تفرق ، ومن قوتين إحداهما للتمثيل بين المتشابهات ، والأخرى للتقريب بين المتناقضات .

أي علم هذا الذي يحتجون به ، وهم يرون الإنسان قد جعله عقله كوناً وحده ، ثم يرون في الكون الكبير يقيناً سارياً مطرداً هو الحافظ لنظامه ، الضابط لدقائقه ، الممسك بمقادير أجزائه ؛ فكيف يصلح الكون الصغير الإنساني إلاّ على يقين مثل هذا يترل من النفس وطباعها ونظام حياتها هذا المترلة ، من الجماعة ، إلى الأمة ، إلى المجتمع كله ، بحيث يلائم بين المتفرقات ويجانس بين المختلفات . أو ينقص من الزائد ويزيد في التناقض ، ويقوم من الاجتماع مقام الحاكم على تلك الأسباب المجهولة التي تدفع الجماعات في كل لحظة إلى قضايا التراع في مصالحها العالمية ، وتدبرها على قانون التجمع والتآلف كما تدبرها على قانون التفكك والتبعثر في وقت واحد ، لقد أثبت

---

(١) في عقائد الإسلام ، مرجع سابق ص ٤ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م ص ١١ .

تاريخ الإنسانية أن هذا اليقين الساري فيها لن يكون غير الدين[1] فهو وحده معنى الجاذبية بين المعلوم الذي تبدأ النفس سيرها منه ، وبين المجهول الذي تصير النفس إليه طوعاً وكرهاً ؛ وما دامت الجاذبية فيه وحده فلن يستطيع شيء غيره أن يقيم حدود الإنسانية ، أو يحفظ ما يقيمه منها، وما غاية العلم إلاّ أن يكون قوة في هذه الحدود أو قوة لبعضها على بعضها بمنفعة أو مضرة . وهي في الجملة ما اصطلحوا على تسميته بالآداب الإنسانية .. انتهى .

إن تحديد مصطلح العلوم ضروري جداً لمعرفة مكانة أمة الإسلام بين الأمم ؛ فإذا كانت تخلفت وتخبطت في مجال الاقتصاد والمال والإدارة في عصر نهضة هذه العلوم ؛ فإنه من غير المفهوم أو المقرر أن تخلفها كان حتى خروجها على منهج العلوم الإسلامية التي ترتبط بين الكسب والإنفاق وعبادة الله . فلما تخلت هذه القضايا عن مراقبة الله جلت قدرته فقد هوت في الحضيض ، ولكنها لو أنصفت هذه الأمة من تدرج المسؤولين وأصحاب المرجعية ، وأصحاب الرأي والمؤمنون؛ فإن تضافر هذه الجهود هو المنطلق الأساسي للخروج من أزمة الاقتصاد . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] .

ومن هم هؤلاء الذين أنفقوا .. سبق الحديث عن صفاتهم ، ولحق الحديث عنهم سبق قول الله تعالى عن صفات عباد الرحمن هؤلاء : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان] .

ويلحق بهؤلاء المنفقين من صفاتهم الخيرة قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان]

---

(١) الدين الإسلامي على الخصوص لشموله وثباته واستمراريته ، ولصدق محتواه دون تغيير أو تبديل مما حملت به الأديان الأخرى التي حرت بها يد الإنسان حذفاً وإضافة وتصيراً واختصاراً وتطويلاً حسب معطيات العصر الذي جرت فيه هذه الممارسات . ويفسر الرافعي كلمة الدين بقوله :

وهذا معنى دقيق بديع ، فإن الأديان إنما كانت على النبوات ، ولم يأت دين من الأديان بمعجزة توضع بين أسدي الناس يبحث فيها أهل كل عصر بوسائل عصرهم غير الإسلام ، بما أنزل فيه من القرآن ، فكأن النبوة في هذا الكتاب متجددة أبداً يلتقي روحها كل من يفهم دقائقه وأسراره ، فلا يلبث البليغ الذي يفهم القرآن - ولو لم يكن من أهله المؤمنين - أن يستيقن في نفسه أنه حارس على اللغة، لم يعل في هذا اليقين فإذا هو قد أوحت إليه نفسه أنه ليس حارساً على اللغة العربية فحسب ولكنه كذلك من حراس المعجزة . " إعجاز القرآن ص ١٤ -- ١٥ " .

وغير ذلك من صفات الخيرية عند الإنسان . إن من موجبات التوافق الأمثل بين الإنسان وما حوله من الطبيعة والقوى الأخرى الضاغطة أو المسهلة ؛ إنما هي تحديد من لدن حكيم عليم ، خلق الإنسان والكون وكل ما تحت العقل وفوق العقل من مخلوقات جل شأنه المدبر العليم اللطيف الخبير . إن علوم الإنسان الآن تحت العقل كلها ، فما زال العقل البشري يتحكم بصورة من الصور بكل الإنجازات الإنسانية المذهلة التي نراها ، و لم يتمكن العقل المبني على الظن أن هذه العلوم هي غاية البشرية ومصيرها ، قد قصر تماماً عن إدراك الأسباب والمسببات فالمولود الذي ولد من عملية الأنابيب كتب الله له أن يحيا فإن لم يكن عن طريق الجماع فقد تم عن طريق التلقيح ، ولكن لم يتمكن العقل البشري من إيجاده ابتداء ومنعه انتهاء ، بل الإنسان فكر وتحايل للوصول إلى تحقيق غاية فقدت عند نسبة من الناس لا تتجاوز بحال ١ / ١,٠٠٠,٠٠٠ تزيد أو تنقص حسب إرادة الله تعالى . ولكن عجز العلم ــ وهذا تجاوز لمقصدنا ــ عجز العلم عن خلق حيوان منوي وبويضة ابتداء ليتم الإخصاب بينهما . والتحدي قائم يقول الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤)**﴾ [الحج] .

هذه المقدمة لا بد منها للدخول في تفصيلات الموضوع المطروح أمامنا في تفسيرات الحياة العلمية لأمة الإسلام ، ومقارنتها بما سواها من الأمم والشعوب ، التي أبدعت في البحث عن العلوم المرتبة تحت العقل البشري .

وما ورد عن ابن حزم وابن خلدون من تقسيم إلى علم عقلي ، وعلم شرعي ، لم يكن تقسيماً على أساس التناقض بينهما موضوعاً أو غاية ، بل هو تقسيم على أساس وسيلة المعرفة ومنهجها كما تدل عليه نفس العبارة ، ولذلك فإننا نجد كلاً منها كما سنراه بعد حين يبين في مواطن متعددة مظاهر التواصل والتكامل بين ما هو عقلي وما هو شرعي من العلوم ، وإلى جانب ذلك فإن ابن حزم سلك العلوم العقلية والشرعية في تقسيم آخر موحد انتهى به إلى سبعة أقسام متكاملة؛ إلاّ أن ابن خلدون في تفرقته بين العلوم الشرعية التي لا دخل للعقل فيها ، وبين العلوم العقلية بدا في الظاهر شديد المفاصلة بين القسمين ولكن ليس إلاّ على مستوى التعبير فحسب .

وإذا ما انتقلنا من الهيكل العام إلى وضع العلوم بدا لنا جلياً مظهر التواصل والوحدة بين سائر العلوم ما كان منها شرعياً وما كان منها مقتبساً ، بل إن ذلك التواصل الذي اعتمد قانوناً في

إدراج العلوم في إطار الهيكل العام كما أفصح عنه ابن حزم في قوله " العلوم كلها متعلق بعضها ببعض ، محتاج بعضها إلى بعض ولا غرض لها إلاّ معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة [1] .

وفي نفس السياق يجعل أحمد بن مصطفى جميع العلوم العقلية فروعاً لعلم الكلام ، وهو علم شرعي ؛ إذ أنه يستعمل مسائلها مقومات في الاستدلال على مسائل العقيدة فيقول في هذا المعنى : قد تقرر في موضعه أن الأصالة والفرعية بين العلوم العقلية أن يكون موضوع الفرع من أنواع موضوع الأصل فعلى هذا يكون جميع العلوم من فروع علم الكلام لأن موضوعه أعم الموضوعات كلها [2] .

لا شك أن هذه التآليف بين العلوم كما بدا في هذه التصانيف ناشئة عن وحدة الهدف بينها. فلما كان الهدف هو خدمة الحقيقة الدينية سَلَّكْنا العلوم كلها في سياق واحد كانت فيه متكاملة متعاضدة لتحقيق هذا الهدف ، وأبعدت في قسم منفصل العلوم المناقضة للعقل والشرع ، باعتبار أنها لا تحقق الهدف بل تعارضه ، واتبعت بتعليقات نقدية تبين خطأها فجاء تصنيفها هي أيضاً في هذا السياق النقدي متواصلاً في الغاية مع التصنيف العام . باعتبار أن المحمود من العلوم يدفع هذا التصنيف إلى الأخذ به لتحقيق الدين . والمذموم منها يدفع إلى التوقي منه واجتناب ضرره [3] .

يمكن لنا بعد هذا التوضيح أن نقف على بعض الحقائق ، نقرر بعض الملاحظات التي لا بد منها لإعطاء أمة الإسلام موقعاً محدداً على خارطة العلم والمعرفة ؛ في هذه الأيام التي طبلَ المطبلون وزمر المزمرون لها بأن الذين دخلوا الألفية الثالثة لميلاد المسيح يجب أن يكونوا على الأقل صورة ممسوخة لعالم الغرب ؛ الذي دخل في المقدمة إلى هذه الألفية بعد أن هيأ لهذا الدخول بتقديم عطاءاته ومنجزاته دون خلل أو خجل ، وليدعم دخوله هذا بما في نفسه من حب السيطرة والسيادة والظلم وأكل حقوق الشعوب الأخرى ، وليبين للناس كافة أن الرجل الأبيض الذي انتقل من أوربا المتصارعة في السابق الموحدة في اللاحق إلى الولايات المتحدة تحديداً ؛ ما زال هو القائم على رأس هرم الإنسانية من حيث القوة والعلم والإعلام والجيوش والهيمنة . ونرى الآن أسداً أعرج أهوج عفى عليه الزمن " بريطانيا " يركض وهو يجر عرجته وراء نهضة الولايات المتحدة ليؤكد للعالم كله أن ابنه الإنكلوسكوني مازال هو السيد ، والذي عليه أن يرث إمبراطورية كانت لا تغيب عنها الشمس متناسياً أن نسبة هذا العرق إلى الآخرين لا يعادل على أكبر تقدير ٣٠ % من سكان

---

(١) مباحث في منهجية الفكر الإسلامي – عبد المجيد عمر النجار – دار الغرب إسلامي ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٢م – ص ٦٨ .

(٢) وانظر : أحمد بن مصطفى – مفتاح السعادة ٥٩٨/٢ . انظر في تكامل العلوم العقلية والشرعية عند ابن حزم : مسالم يغوث . تصنيف العلوم عند ابن حزم : ٨٢ .

(٣) المصدر السابق : ص ٧٠ .

الولايات المتحدة ، وهم النخبة التي تلعب لعبة الديموقراطية لإبراز واحد منها ليكون على سدة الرئاسة بأسرار خدعت بها العالم كله ، وبأقل الأمثلة الانتخابية الأخيرة في الولايات المتحدة كانت لا تتعدى ٥٣ % نجح بها بوش الابن بنسبة ٢٧ % وخسر " الكور " ٢٦ % ففارق الأصوات كان من مهازل تطبيق الديموقراطية ، ورضا الخصم بهذه النتيجة جاء حرصاً على عدم تقويض هذا النظام الذي يبقى سيادة الإنكلوسكون سائدة .

إذاً نحن في هذا المحيط نقرر قضايا قد تكون غريبة عن ذهنية القارئ :

١- نجاح العولمة في مجال العلوم التطبيقية ، والتي صنفها العلماء المسلمون بأنها ما تحت العقل . وقد طورت هذه العلوم واكتشفت كثيراً من أسرارها وخباياها ، وخرجت من تفاعل هذه العلوم علوماً جديدة كل الجدة ، لم تكن تعرف مثل هذا .. واستفادت العولمة من جهود علماء كثيرين من نتاجها ؛ أو من المهاجرين حديثاً إليها وشريحة كبيرة في مختلف التخصصات من دول أخرى ، بعضهم لم يحصل على جنسية هذه الدول بعد والبعض وصل هناك فراراً من حربه التي حشدها مع أتباع العولمة في بلاده ، فقدم بعد ذلك في جوٍ من الحرية والعطاء المغري كل ما عنده ، وساهم من قريب أو بعيد في رفد هذه العولمة بما تحتاجه من معارف وعلوم ، تفوق بها هؤلاء على أندادهم من أبناء العولمة المتجنسين قبل فترة بعيدة أو قريبة [1]

٢- نجاح العولمة في هذا المضمار كان له رافد خطير من المسلمين خصوصاً ، والشعوب الأخرى عموماً وهو الذي سد النقص الحاصل في تحريك الحياة في هذه المناطق ، أي الأعمال الدنيا التي لا تتطلب جهوداً عقلية كبيرة ، بل تحتاج إلى جهد بشري أو يد عاملة ، وتكاثرت هذه القوى لتصبح واضحة جداً في تلك المجتمعات ، والتي سيكون لها تأثير كبير في المستقبل رغم ضعفها وكثرة عددها الآن أمام قوة الآخرين وقلة أعدادهم .

٣- ما من شك أن أمة الإسلام في بلادها ضعيفة جداً في هذا المضمار لأنها لم تتمكن حتى الآن من استثمار طاقات علمائها وما لديها من رصيد بشري ؛ وفكري ؛ وتجاري " كوريا ، تايوان ، الصين ، اليابان ، وغيرهم " وبذلك فقد حرمت الكثير من المبدعين الذين ذهبوا " أقليات" في بلاد أصحاب السيطرة ليقدموا لهم إبداعاتهم وعطاءاتهم . وهذا الأمر واضح في هجرة العقول المسلمة إلى الغرب للمساهمة في سيادته وسيادة وليدته "العولمة" في العالم .

---

(١) العولمة : وصف لسيادة القطب الواحد " الولايات المتحدة " على العالم وعدم وجودنا ضمنها في الوقت الحاضر على الأقل . والعولمة : قضايا اقتصادية وسياسية وفكرية واجتماعية وعسكرية – ولا مجال للخوض في تفاصيلها في هذه العجالة .

٤- ليس لدينا إحصائيات دقيقة لهجرة هذه العقول ؛ ولكن يمكن أن نقف على بعض المؤشرات التي توضح لنا خطورة القضية وقطاعاتها [١] .

هذه العقول التي تقدم إبداعاتها واختراعاتها إلى عالم الأقوياء ، ليس لها في عالم المسلمين أية قيمة ؛ إن قدر لها أن تعود لتمارس الإبداع " تحت العقل " فيما يسود به العالم الآن ، لأن دراسات ما تحت العقل تحتاج الكثير الكثير من العلوم المساعدة أو الاختراعات السابقة وكذلك مختبرات التجارب ، وحقول التجارب ، وما في معطيات العقل البشري الآن .استنساخ البشر ، أو الاستنساخ عموماً جندت له الدول الكبرى الخوف منه ؛ فأكبر دولة وراعية العولمة قررت على لسان المسؤولين فيها محاربته ، وبعض العاملين في هذا المجال تحدى البشرية وقال بأنه سيتابع أبحاثه ولو في المياه الحرة في العالم ، حيث لا سلطان لأحد عليه ويبقى ـ ولم الخوف ـ تحت سيطرة العقل والعقل البشري ميت ، مثله مثل الجسد البشري : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا** (٨٥) ﴾ [الإسراء] ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**(١٨٧) ﴾ [الأعراف] .

أما علوم التوحيد وما فوق العقل البشري فإن الإنسانية مفلسة بها تماماً ، وعندما تعرضت هذه العقول لها من اليهود والنصارى تخبطوا واضطروا لجلبها إلى ما تحت العقل فمثلوا المسيح ابن الإله وأمه مريم بتماثيل وأشكال وصور ، وأخضع اليهود إلههم يهوه إلى هواهم ومشيئتهم وجعلوه تابعاً لهم وليسوا هم تابعين له . أما الوثنيون فلم يطرقوا هذا الباب واكتفوا بما توارثوه عن الأقدمين جداً لمعبودهم براهما أو بوذا ـ مع تخرصات مغرقة في التخلف ، لبحوث العبادة والالتزام بمواثيق غير ما يردفه تحت أيديهم .

٥- انفراد الإسلام وبكل جدية وبكل إبداع مطلق ، وبكل إيمان واضح إلى هذه المواضيع فأعطوا بها إبداعات لم يتمكن العقل البشري حتى الآن من مجاراتها أو الخوض بها .. واكتفى المستشرقون بالحديث عن الدين سقطوا في هوة الشرك والوثنية ، ليجعلوهم سادة الإبداع والاختراع . كالحلاج وإخوان الصفا وخلان الوفا .. وكل من انحرف عن جادة الصواب ، الذين

---

(١) انظر تفصيلات عن ذلك : هجرة الكفاءات العربية – مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م .مع الأخذ بعين الاعتبار أن العرب – موضوع الدراسة – يعادلون ٦/١ من المسلمين في العالم تقريباً .. وهجرة المسلمين من ديارهم مثل القارة الهندية أو تركيا أو غيرها يصل إلى أعداد تفوق التصورات .

انظر أيضاً : المغتربون : تجربة الهجرة الباكرة إلى أمريكا : اليكسائف – دار دمشق .. طبعة أولى ١٩٨٨ – ١٩٨٩م .

ألهوا أنفسهم ، أو ألّهوا أئمتهم ، أو ألّهوا أمواتهم ، وهم من الذين لم يتمكنوا أن يرقوا إلى ما وصل إليه الآخرون " علماء التوحيد " من إبداعات وتحديدات ومواضيع قل أن جاراهم أو يجاريهم بها الآخرون ، ومن منطلق هذا العلم تحددت العلوم الأخرى التي لم تكن أكثر من تابع له في كل عطاءاتها وتفرعاتها وإبداعاتها .

وفي هذا المجال لم يتخلف المسلمون عن الإبداع في العلوم التي تسود العصر الآن ؛ ربما تأخروا بها الآن نظراً لعدم توفر إمكانات البحث والصبر عليه ، وتغطية الحكومات لحماية المبدعين والمخترعين ، وهذا الأمر ليس أصلاً في الإسلام ؛ بل هو طارئ جديد جداً اعتباراً من بعد العهد العثماني ــ عهود الاستعمار الغربي والاستقلال ــ الذي يعتبر من أسوأ العصور التي مرت على المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى الآن [1] . إذاً فالأمر طارئ على أمة الإسلام وليس أصيلاً فيها . وتخلفنا اليوم هو نتاج عهود الاستعمار وفترة التجزئة المستمرة وكذلك سيطرة المتخلفين والجهال من الحكام على مقدرات الأمة ، وعدم وجود إمكانية التكامل والتنسيق بين علماء الأمة . وإتاحة الفرص للمبدعين في هذا المضمار .

٧- في التطبيق العملي للعلم والفكر والثقافة بين المسلمين الآن خلط عجيب ، وهذا الخلط أدى في الواقع إلى تشتت المفاهيم ، واختلاف المقاصد ، وضياع الأهداف ، وجاء كثير من علماء الإسلام واعتبروا أن تقليد الغرب ، واللحاق به بمخترعاته ومنجزاته العلمية هو السبيل الأمثل ليكون لدينا علماً وفهماً ، ومعرفة وثقافة ، وانحاز الكثيرون عن دراسة ما فوق العقل إلى ما تحت العقل ؛ فكان أن فقدنا الثانية وما لحقنا بالأولى ، وهذا ما جعل كثيرين ينحازون إلى علوم الغرب، وعالم الغرب ، ومعرفة الغرب ليكونوا حجارة في بنائه .. وسواء أعطوا قيماً لعلمهم أو لم يعطوا ؛ فإنهم رضوا بما عندهم ، وظنوا أنهم أدوا أمانة ما وهبوا من علم ، ولكنهم ومع الأسف ، لم يكونوا أكثر من نسخة غير واضحة الأبعاد من بعض علماء الغرب . وهذا ما حدا بالكثير من مفكري الإسلام للوقوف على معطيات العلم وحدود العلم ، ومعنى العلم ، وهم كثر .. كالأطباء وعلماء الطبيعة ــ معترك مع إنجازات العلم الحديثة التي أرادوا أن يدخلوا للتشكيك في بعض آيات القرآن ، أو أحاديث الرسول ﷺ .

إن المهم هو أن ندرك هنا وجود التصور في حياة المسلمين لا ترجع إلى قيم الإسلام ومقاصده وغاياته ، وإنما ترجع إلى فكرهم وعقلهم . إن حديث القصور وحديث الإصلاح ؛

---

(١) راجع من أجل ذلك ، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية . (٦) مجلدات منشورات وزارة الثقافة - سوريا ١٩٩٥ .

إنما هو حديث عن العقل المسلم والفكر المسلم ، وعن تنزيل العقل المسلم والفكر المسلم للمبادئ والقيم والغايات على المجتمعات والتنظيمات والوقائع والأحداث . هناك فرق بين مبدأ التكامل والتضامن وبين إجراءاته وترتيباته ، أو القصور في إجراءاته وترتيباته وهناك فرق بين مقاصد الشريعة وبين سياساتها ، وبين مبادئ الشريعة وقيمها وبين إجراءاتها وترتيباتها ، فالقيم والمبادئ والمقاصد هي من كليات الوجود تمتد في الفطرة السوية عبر المكان والزمان ، أما الترتيبات والإجراءات والسياسات والتطبيقات فتنطلق من الزمان والمكان نحو القيم والمبادئ والغايات في أصل الفطرة وكليات الوجود .

كل هذا يوضح لنا أن الفرق بين العقيدة والمبادئ والقيم ، وبين الفكر والفهم والتطبيقات ، والتوفيق فيها أو مقصودها وانحرافها هو قضية أساسية حدية لا مجال لغبش في فهمها ورؤيتها إن شئنا أن نصحح مسيرتنا ، ونصلح أمرنا وننطلق إلى غاياتنا ، ونضع حداً لمعاناتنا . وهذا معناه في النهاية أن أزمة الأمة إنما هي أزمة فكر لا أزمة عقيدة وهي أزمة منهج لا أزمة فحوى وهي قضية وسيلة لا قضية غاية .

ومن هنا يجب أن ينطلق البحث الصحيح والعمل الجاد ، وأن نضع بذلك حداً للحلقات المفزعة من دوران المتابعة اللاهثة خلف الدعوات المغرضة والسرابات الخادعة وجرعات التقليد الفاسد العقيم [1] .

ويقول المؤلف تحت عنوان : العزلة الفكرية تربة الجمود والتقليد والتخلف :

إن من الواضح أن الآفاق الحضارية التي بلغتها الأمة بالأمس لم تكن إلاّ من آثار الدفعة الكبرى التي أحدثها الصدر الأول من الإسلام ، وما بقي من آثاره من مفاهيم وسياسات وتنظيمات . وكان لابد للجذوة أن تخبو ، وللحركة أن تتلاشى كلما تغيرت الأحوال ، وظهرت عوامل المقاومة ، وتغيرت المعالم والتحديات وفي هذه الأحوال فُقِدَ دليل العمل وتلاشت طاقة الدفع والتجديد ، وذلك بانفصام القيادة السياسية عن القيادة الفكرية ، وتعارض السلاطين والعلماء والتباعد بينهم مما أدى للركون للحرفية والتقليد وإلى اتباع الجاهليات والأهواء ؛ وكان لابد أن تتراخى المسيرة وأن تصعب مواجهة العقبات والتحديات ، حتى عجزت الأمة عن الاستمرار في توليد المعارف وتطوير الأنظمة ، وعن توليد الخطط والوسائل والسياسات لبلوغ آفاق حضارية متنامية تستجيب للظروف والحاجات والإمكانات المتطورة والمتغيرة .

---

(١) أزمة العقل المسلم ـ د . عبد الحميد أحمد أبو سليمان ـ المعهد العالي للفكر الإسلامي هيرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتحدة ١٩٩١ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

فمنذ انفصام القيادتين الفكرية والسياسية ، وعزلة القيادة الفكرية ، والأمة وحركتها الاجتماعية والحضارية لا تعيش إلا على بقايا البناء والهياكل والسياسات الاجتماعية الكبرى التي أرساها الصدر الأول ؛ لتستمر في تناقض مع معاول الانحراف السياسي والحضاري والفكري الذي يسرى في جسد الأمة وقيادتها السياسية والاجتماعية ، إلى جانب تغير الأحوال وتبدل المجتمعات والتحديات حتى لم يبق من البناء الإسلامي التاريخي إلاّ رسومه وهياكله . ولا تكاد تستبين له من وصف إلاّ فيما تنطوي عليه القلوب من عواطف أو مما يمارسه الناس في بعض أحوالهم الشخصية من طقوس وتصرفات [1] .

أما القيادة الفكرية فإنها لعزلتها وللحصار المضروب عليها بعيداً عن ممارسة المسؤولية السياسية والاجتماعية للأمة،فإنها انصرفت للنصوص الدينية تدرسها وتبني علومها وعلوم اللغة العربية اللازمة للحفاظ عليها ، وصيانتها من الضياع والعدوان . ولذلك أقاموا علوم نصوص القرآن وعلوم نصوص السنة وعلوم نصوص اللغة . وجاءت علوم الفقه لتنحصر في مجال الممارسات الفردية في أبواب الشعائر " العبادات " أو في أبواب المعاملات ، وهو في ذلك أقرب إلى الوصف والشروح التي تفتقد التنظير كما كان عليه أحوال الصدر الأول وممارساته في الحياة اليومية ، كذلك أيضاً انفصل علم الثقة والتطبيقات الحياتية عن علم العقيدة والرؤية الكلية الكونية والحضارية .

ولم يعد للعقائد وعلم العقائد دور يذكر في ترشيد الحياة الاجتماعية ، وتقديم الهداية والدليل لحركتها ومبادرتها ، بل تحولت في جوهره إلى علم المتشابهات والمعميات والجدليات التي تقذف العقل المسلم في أمواج متلاحمة من الغيبيات التي ليست من شأنه ولا في طاقة نظره وإدراكه والتي كثيراً من الأحوال تشله وتصرفه عن غاياته،وجدية أداء مهمته في الحياة من العمل والاستخلاف [2] .

ويتابع الباحث في تحري أسباب الأزمة في العقل المسلم فيقول :

حتى الأصول الكبرى للإسلام وللعقل المسلم وقاعدة فكره ، وموجة حركته وفعله والتي كانت المرشد الحي الفعال للعقل المسلم وفكره في الصدر الأول نجدها أصبحت تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول منها يتعلق بالنصوص حفظاً وقياساً ، وسمي بالأصول الأساسية أما القسم الذي يتعلق بالقواعد والمنطلقات اللازمة للنظر في الواقع الحياتي والاجتماعي والتعامل مع الطبائع والأحوال فإنها اعتبرت أصولاً ثانوية .

---

(١) أزمة العقل المسلم ، مرجع سابق ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ٦٧ — ٦٨ .

وهكذا طُورت الأصول والمناهج الخاصة بالنصوص لتصبح علماً ومعارف متكاملة أما الأصول والمناهج الخاصة بالأحوال والوقائع والطبائع فإنها علوم المجتمع بالمعنى الصحيح وبالمدى الممكن لمنطلقات الإسلام . وهكذا لم ينشأ علم سياسة إسلامية ولا علم تربية إسلامية ، ولا علم اقتصاد إسلامي ، ولا علم إعلام إسلامي ولا علم إدارة إسلامية ، والعلوم المنهجية المنظمة هي غير التأملات والنظرات التلقائية المبعثرة دون تخطيط ولا منهج .

أما إعداد (كوادر المجتمع المسلم ، وبناء نظمه ، ورسم سياساته فقد أصبح أمرا اعتسافياً عشوائياً تتخبط معه مسيرة الأمة ، وتنهار به مؤسساتها ، وتتخبط به نوعية " كوادرها " .

إن الفرق بين التأملات العابرة الاجتماعية ، والدراسات العلمية الاجتماعية : هو أن الدراسات العلمية الاجتماعية دراسات منظمة تنطلق من الوقائع والطبائع والفطرات الكونية إلى الغايات والمبادئ والقيم ، وأنها تنضبط بنتائج الواقع وتحقيق الآثار المطلوبة ، ولا تتستر كما يحدث اليوم كثيراً خلف الألفاظ والأماني والدعاوى والذكريات .

ويخلص الباحث إلى القول بتحديد أزمة العقل وأزمة الفكر إلى ما يلي :

– إن أزمة العقل هي أزمة تحقيق الغايات الإسلامية النبيلة ، وتجسيد القيم والمبادئ ، وهي أزمة فكرية في لبها ومنطلقها ، وهي أزمة المنهجية العلمية التي نفتقدها في ميدان الدراسة الاجتماعية .

– إن أزمة الفكر المسلم كما هي اليوم هي أزمة المنهج العلمي الاجتماعي وبناء العلوم الاجتماعية التي تمد الأمة ــ إلى جانب المعرفة بدلالات النصوص ــ بالمعرفة بالطبائع والفطرات والوقائع والأحوال في الزمان والمكان ، حتى تتمكن الأمة من بناء فكرها ونظمها ومؤسساتها وسياساتها التي تحقق غاية الإسلام ، ويتم الإسلام ومبادئ الإسلام . انتهى [1] .

إن التوسع في معرفة واقع الأمة العلمي والثقافي والفكري يستوجب أن نقف على أسباب التخلف الذي وصلته أمة الإسلام في الوقت الحاضر ، ونضيف أن السبب الأكثر تأثيراً للوصول إلى ما وصلت إليه أمة الإسلام يندرج تحت الأمور التالية . وقد يزيد عليها أو ينقص منها .

١- سيطرت أوروبا الغربية على أمة الإسلام ردحاً طويلاً من الزمن . نشرت ثقافتها وفلسفتها وعقائدها بمقابل تجفيف ينابيع الثقافة الإسلامية . إضافة إلى إضعاف كل ما يمت إلى الإسلام

---

(١) أزمة العقل المسلم – مرجع سابق ٦٨ – ٦٩ ، يحسن الرجوع إلى الكتاب " المرجع " ، فمنهجه يقوم على البحث والنظر الشمولي المنضبط ، فهو ينظر إلى الأمة الإسلامية منذ وجودها وبتأمل تاريخها باعتبارها وحدة عضوية ذات تأثير حيوي متبادل بين أجزائها وأحيائها ويتتبع في مسارب الزمان والمكان ظواهر القوة والضعف وأسبابها مفرقاً بين الأسباب وبين الظواهر والمضاعفات ، وما قد يطرأ بينها من تفاعل قد يحول المضاعفات إلى أسباب متنامية لأمراض أعمق وأشمل – الغلاف الأخير للكتاب .

بصلة، علماً وفكراً أو ثقافة و عقيدة . ونشرت الجهل والأمية بين المسلمين ورفعت وتّمت الأقليات العرقية والدينية والطائفية والمذهبية في تحدٍ صارخ لأهل السنة والجماعة ، كما شجعت الانحراف الديني والخلقي والاجتماعي ، وشجعت الإباحية والمحرمات ، وسدت باستمرار كل طرق الحلال والخير ، وخاض المسلمون حرباً ضروساً استمرت زهاء قرنين . خرجت فيها الحضـــارة الغربيـــة المادية بأوج قوتها وانتصاراتها وأمة الإسلام بأحط أحوالها وحياتها ومفاهيمها وعلمها .

٢- اعتمدت الدول المستعمرة في حقبة الاستعمار على تجزئة الأمة إلى أجزاء متنافرة متناحرة ، متحاربة على أساس طائفي وإقليمي وقومي وديني ومذهبي ، ورسخت بين أفـــراد الأمـــة هـــذه التجزئة، وحولت الناس إلى انتماءات شتى ليس فيها واحدة للإسلام ؛ أو حتى للعروبـــة ، أو لأي أمرٍ يمت إلى ثقافة الأمة عموماً بصلة .

٣- تركت الدول المستعمرة - أو المهيمنة عموماً - على مقدرات الأمة من أوربا الغربيـــة أو روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقاً) الولايات المتحدة حالياً ركائز الحكم غير الإســـلامي عمومـــاً وسلمتهم مفاتيح الحكم ومقدراته ، وقابلتهم بتحديات لا قبل لهم بها ، مما جعلهم يخضعون تماماً لهيمنة هـــذه القوى ، وأسلموهم قيادها أو نفذوا لها خططها وأهدافها ، وفي أحايين كثيرة تخطوا الخطوط المرسومة لهم ، خاصة فيما يتعلق بقضايا الإسلام والمسلمين الفكرية والسياسية والبشرية وطاقات الأمة . وهؤلاء تركوا " دولهم " الكيانات التي ليس لمسلم واحد فيهـــا رأي في تحلـــف وجهل ومحدودية ضيقة جداً بالإنتاج والتفكير والعطاء والإبداع ، وتركت هذه القوى لكل دولة أزمة أو أزمات حادة تستنفذ خيراتها في الداخل ، وتركت مشاكل حدودية ومصالح بين كل دولة وأخرى ، ثم أثارت أو أجلت اندلاعها لوقت معلوم . مما ترك هذه الدول في عـــداء مســـتحكم وخوف وترقب ، ومراقبة القادمين إلى بلاد العرب والمسلمين من بلاد العرب والمسلمين في خوف ومتابعات أمنية ترهق كل هذه الدول ، إضافة إلى أن أجهزة الأمن هيمنت لسد هذه الثغرات على كل مقدرات الأمم ، وأعطت أعداء وهميين أو حقيقيين أشغلتهم عن كل القضايا الـــتي تميـــت (الدولة) عقدة عقدة ، وجعلت المصالح الكبرى كلها في أيدي المتنفذين الظاهرين والأشباح الذين يعملون بالخفاء .

٤- لم يعد لدى هذه الدول الإسلامية قضية رئيسية تقاتل من أجلها ، بعد أن جـــرت كـــل الحكام المسلمين إلى الاعتراف بدولة الصهاينة التي زرعتها في قلب العالم الإسلامي حيث استنفذت كل طاقاته - أو أكثرها على الأقل - من أجل هذا العدو الذي يحقق الانتصارات تلو الانتصارات، وأفشلت الجيوش الجبارة .. ! ؟ وهزمتها أمام هذه القلة بسحب كل عناصر التأييد لهذه الـــدول

التي تعتمد كلياً في مجال الحياة والعلم والفكر على ما تقدمه الدول القادرة والقوى المهيمنة لهذه الكيانات الهزيلة التي لا يملك أكثرها مقومات دولة .. فالمسلمون حوالي ٦٤ دولة ، عدا ثلثهم المنضوي كأقليات في مختلف أنحاء العالم تعدادهم جميعاً كسكان الصين (دولة واحدة) وقريباً من (الهند ــ أيضاً دولة واحدة) .

٥- أهم ما يخيف المسلمين في هذا العصر ؛ المسلمون الآخرون دول جوار أو دول متسلطة ، أو ، أو .. ألخ . ما يشغل المسلمين الآن ، وبذلك فقد فقدت تماماً أية وسائل " دفاع مشترك " " قوات متعاونة " " جيوش صديقة " وعلى القارئ أن يحيل نفسه على أية محطة فضائية لدولة عربية ، أو دولة إسلامية ليرى أدب الدولة وفنها ومصيرها ومالها وما عليها يتركز حول خوفها من جوارها .. وتُقَدِمُ الكثير من الدول أرضها وماءها وسماءها ليستخدمها الأقوياء بضرب المسلمين بعضهم بعضاً ، كما أن جميع الطاقات المادية والعلمية توجه من أجل أن تحمي الدول حدودها بعضها من بعض . عندما كان من بعض التحركات الإقليمية هنا وهناك ضد العدو الخارجي مثل فلسطين والشيشان ومقدونيا وكشمير .. أو .. أو .. والباقي على خط التنازلات يسيرون .

٦- ما من شك فإن في هذه الصفحات السوداء بعض الآمال البيض فإنه ضمن المؤسسات التي سينتظم بها المسلمون إقليمية أو دولية يلتقي المسؤولون لدغدغة قضية من القضايا لم يتمكن هؤلاء من إعطاء رأي موحد بها ؛ أو اتخاذ قرار موحد ، حيث وصلت السياسة في أمة الإسلام إلى مرحلة لم تصل هذه الأمة يوماً إليها . ومع هذا فالمسلمون أمة واحدة من دون الناس فكراً وثقافة وعلماً و .... ليس بعد هذا من حديث عما يرتبط بالعقل المسلم الذي تمزقت مدركاته إلى ألف ونيف من حديث الفرقة والابتعاد .

وختاماً : مع هذه الصورة القاتمة " فنحن نقر ونملك أمراً ليس في غير الإسلام وجود له فإن ما تحقق في العصور السالفة على أساس فكر الإسلام وتأثير روحه ومنهجيته المبدعة رغم آفات الفلسفات والجاهليات قد أضاء ظلام القرون ، وأشاد صروح الهداية والمعرفة والعلم والإنجاز ما كان للإنسانية أن تحققها دونها ، وفي ضوء هذه الظروف والتحديات الهائلة التي أحاطت برجالات الصدر الأول للإسلام وإمكاناتهم وعظيم ما حققوه من إنجازات ، هل يبقى لنا حاجة إلى أن نلجأ إلى اللوم وأن نبالغ في أمر ما قصرت عنه إمكاناتهم ؟ ! وفي نفس الوقت هل لنا أن نتعجب أو نوجه اللوم حين يتراجع مستوى أداء الأمة وصفاء رؤيتها أمام تفاقم هجمة الجاهليات والفلسفات والانحرافات التي دبت في كيانها ؟ حين كان من الصعب في ظل تلك الظروف والإمكانات إيجاد

المؤسسات والطاقات اللازمة حتى يمكن أن تستوعب الأمة هـذه الأفواج والأمواج من القبائـل والشعوب ، وتؤهلهم على ما كان للأولين من تربية والتزام ؟ .

إن من الواجب أن نفخر بما حقق فكر الإسلام للأمة وللإنسانية على تفاوت في المجالات رغم كل العقبات ، إن كل ما تحقق في تاريخنا وكياننا لا يمكن فهمه ولا تفسيره إلاّ بعطـاء الإسـلام ومنهجه في الفكر والإعمار والإصلاح ، وإذا كان عطاء الفكر الإسلامي ومنهجه لم يكتمل و لم يعط كل ما كان يطبق من ثمر ؛ فإنه قد أعطى كثيراً ، ومدى عطائه الشامل الهائل ـ رغم كـل العقبات ـ هو الدليل على طاقته وقدرته الكامنة والمتجددة ، وذلك إذا أحسنا فهمه والتعامل معه وأطلقنا أمامه المجال في النفوس والمجتمعات . إن علينا أن ندرك أن ما انتهينا إليه هو مسيرة أمـم وشعوب وعصور وأحقاب ، حققت آفاقاً من العطاء هو قاعدة كل قدرة وعطاء بلغتها حضـارة الإنسان اليوم ، فإذا تضافرت آفات وجاهليات تلك العصور والأحقاب في إيقاف المسيرة وحجب العطاء فإن الجهد المطلوب هو بلوغ رؤية شمولية صافية محددة ندرك بها الدروس والعبر حتى يعود نور الإسلام . وتصحُ الأمة وتواصل مسيرتها وتزهر براعمها ويكتمل عطاؤها وبرها للإنسـان في دين هداية وعلم وفلاح ، وحضارة خير ، وأمن وسلام بإذن الله [1] .

ونستطيع بعد ذلك أن نستوضح ما نريد إدراكه من أن الأمة لم تمت أو تنقرض أو يأتي عليها البلاء ويعفو عليها الزمن ، كالأمم السابقة التي سادت وبادت ، ولكن نقر بأن أمـة الإسـلام وحدها هي الباقية لأن الله تعالى عندما أقر بأنها هي خير الأمم فمن المنطقي أن بقاءها دائم متجدد في معجزة أبدية يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ، وكل جيل من الأجيال المسلمة يقابل التحـديات التي تستجد بفكره الذي رسمه القرآن وحدده الرسول ﷺ بدقة متناهية ، فإن تأثر جيل بتحدٍ ما ، فإن التجديد المقرر في هذا الدين والعطاء المستمر ، والمعجزة الدائمة قادرة على أن تجابه التحدي بتحدٍ أقوى منه ، وهذا ما أعجز كل المشوشين على الفكر الإسلامي ممن انحرف منهم أو طـرأ عليهم من شرق أو غرب من شمال أو جنوب . الفكر الإسلامي المتجدد ـ بدون تغيير قواعـده الأصولية ـ هو المعجزة التي أودعها الله تعالى في عقول المسلمين بعد أن جعل معجزات الأنبيـاء السابقين بوقتهم وحالهم ولزمانهم ومكانهم ـ أين ذهبت عصاة موسى وناقة صالح وطوفان نـوح وخسف قوم لوط وهلاك قوم صالح وهود . كل هذا بقي أثراً غير متجدد . وانتهى وقته . أما ما عند المسلمين من تأثير كتاب الله تعالى فإنه يعطي المعجزة تلو المعجزة في كل زمان ، ومكـان ، وأمام أي تحد مهما كانت أبعاده العقلية والجسدية وإمكاناته المادية .

---

(١) انظر : أزمة العقل المسلم ، د . عبد الحميد أحمد أبو سليمان ص ١٠١-١٠٢ .

فالإسلام جاء رسالة هداية من الله سبحانه وتعالى إلى الخلق وهم في مرحلة جاهلية حالكة من تاريخ الإنسانية ، حرفت منها الرسالات السماوية وأطبق فيها الظلم ، وعم الفساد ، فبدد الإسلام ظلمات الروح ، وفتح أمام الإنسان وعقله مجالات التدبر والمعرفة والبناء ، فبدأت الإنسانية مسيرة حضارية جديدة ما كان لها أن تحقق ما حققته اليوم دون هدي الإسلام . ومن أهم ما وهبه الإسلام للإنسان المعاصر هو تكامل معرفته بتوثيق الوحي وحفظه ، وتحرير العقل وإطلاق عقاله ؛ لكي يمارس دوره البناء في مجال العلم والإصلاح والإعمار .

وكانت منهجية العقل المسلم على عهد الصدر الأول منهجية تلقائية متكاملة ؛ تستند إلى حكمة توجيه الوحي وسلامة اجتهاد العقل ، وإدراك ووعي تلقائي ذكي لأحوال الفطرة في النفوس والكائنات ، فكان عهد النبوة والخلافة الراشدة شاهداً وقدوة هادية منقذة متلألئة في زوايا روح الإنسان ومسيرة الأجيال ، وما من بقية حتى اليوم من خير في أرض الإسلام وشعوب الإسلام إلاّ وهي بسبب من الإسلام وخلق الإسلام وغاياته . وهكذا بقي الإسلام رغم كل دواعي التدهور في حس الأمة هو حصنها من الضياع والهلاك على مر الأيام والقرون [1] .

" اكتمال الدين " ... و " تجديده " ... وبتعبير آخر : " السلفية " ... و" التجديد " مصطلحان يرمزان - في عرف الباحثين - إلى نعتين متقابلين ، بل ومتناقضين في الرؤية والمنهج ، والذين ينظرون إلى فكرنا الإسلامي بمناهج الفكر الغربي لا يتصورون علاقة وفاق أو اتفاق أو تكامل بين " اكتمال الدين " وبين تجديده ، أو بين " السلفية " وبين " التجديد " ففي الفكر الغربي كانت " السلفية " - الأرثذوكسية - هي الوقوف عند الأصول حتى لقد سميت هناك " الأصولية " على النحو الرافض لأي اجتهاد أو تطوير له أو تجديد ، كما كان التجديد والاجتهاد ثورة تأتي على هذه السلفية - الأصولية الأرثذوكسية" - من القواعد والأساس لكن منهجنا الإسلامي - بوسطيته الجامعة - لم يعرف ولن يعرف إذا نحن التزمنا أعماله ، هذه الثنائية الانشطارية التي تقيم التقابل والتضاد بين " اكتمال الدين والسلفية " وبين " الاجتهاد فيه والتجديد له " .

إننا نتلو في آيات القرآن الكريم قول الله ، سبحانه وتعالى : ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة :٣] .

---

١) انظر : أزمة العقل المسلم ، مرجع سابق ص ١٠٢ – ١٠٣ .

ونقرأ في السيرة النبوية الشريفة قول رسول الله ﷺ : " يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " [1] . فلا تشعر بالمنهج الإسلامي ــ ووسطيته الجامعة ــ أن هناك تناقضاً بين اكتمال الدين بتمام الوحي وختام النبوة ، وبين التجديد الدائم لهذا الدين الذي اكتمل بختم الوحي وتمام القرآن الكريم .

ذلك أن الدين عقيدة وشريعة ... والعقيدة فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، والشريعة كل ما ينتهجه المسلم ويسلكه ويقيمه كي يعتقد هذه العقيدة ويتدين بها . ولكل من العقيدة والشريعة أصول وقواعد وأركان . وهي جميعها اكتملت بتمام الوحي الذي اكتمل به الدين . لكن الإنسان المسلم بحكم خلافته عن الله سبحانه وتعالى في عمارة الأرض وسياسة المجتمع وتنمية العمران لابد له ــ وهو ينجز مهمته هذه ــ من إقامة أبنية أخرى يبدعها هو فوق هذه الأصول والقواعد والأركان . فالإسلام بني على خمس [2] فهو إذن ليس فقط هذه الخمس ، وإنما هي القواعد تعلوها أبنية الفروع ، وهذه الأبنية ــ الفروع للأصول ــ والتي تتغير وتتجدد وتتطور تبعاً للمصلحة وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان ــ إذا كانت متسقة مع مقاصد الأصول وغايات القواعد وحدود الأركان فهي تجديد في نطاق وآفاق وتأثيرات هذه الأصول والقواعد والأركان . فالأصول الثوابت قد اكتملت باكتمال الدين ، بينما آفاقها وآثارها والفروع الباسقة منها دائمة النمو والتغيير والتطور . شاهده على دوام التجديد ، وعلى العلاقة بين هذا التجديد وبين الثوابت المكتملة من الأصول والقواعد والأركان [3] .

ولوضوح هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي ، كان اتفاق مذاهب الفكر الإسلامي على امتناع الاجتهاد في الأصول ، ففيها وعليها قامت وحدة الأمة منذ اكتمال الدين بختم الرسالة ، وكان إتقانها ، كذلك ، على أن الاجتهاد الإسلامي مجاله " الفروع " فهو عندئذ يمد فروع الأصول إلى المستجدات من الوقائع والأحكام وبكل أحكاماً جديدة ــ أي فروعاً جديدة ــ كل أحكام تجاوزها الواقع الذي تغير والعرف الذي تطور والعادات التي تبدلت ، عندما تكون هذه الأحكام ذات علل غائبة ، تدور معها وجوداً وعدماً ، بل إن هذا الاجتهاد والتجديد إنما ينهض بدوره الدائم في الكشف عن جوهر الأصول والقواعد والأركان وتجليتها إذا علاها غبار الابتداع فطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل ففي الأصول وللقواعد أيضاً

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١) .

(٢) في الحديث الشريف . قال رسول الله ﷺ : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا " رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٩/١٦-٢٢) .

(٣) معالم المنهج الإسلامي ــ محمد عمارة ــ الأزهر الشريف والمعهد العالي للفكر الإسلامي ط٢ ١٩٩١-ص٩٤ .

تجديد ـ بهذا المعنى ـ وهو الذي جعل حديث رسول الله ﷺ يتحدث عن تجديد الدين ، وليس فقط تجديد " فكر المقترنين بالدين " !

فليس التجديد إذاً نقيضاً " لاكتمال الدين وثباته " بل إنه السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته إلى الميادين الجديدة ، والأمور المستحدثة والضمان لبقاء الأصول صالحة دائماً لكل زمان ومكان ، أي أنه هو الضمان لبقاء الرسالة الخاتمة خالدة ولولا مده الفروع الجديدة إلى الجديد من المحدثات ، إقامة الخيوط الجديدة بين الأصول الثابتة وبين الجديد الذي يطرحه تطور الحياة .

ولولا تجديده الدائم الذي يجلو الوجه الحقيقي والجوهر النقي لأصول الدين وثوابته ، ولولا دور التجديد هذا في حياة الإسلام ومسيرته لنسخت وطمست هذه الأصول إما بتجاوز الحياة الممتدة لظل الفروع الأولى والقديمة ـ فيرى هذا الامتداد الجديد من ظلال الإسلام ـ أو بتشويه البدع عندما تتراكم ـ لجوهر هذه الأصول [1] .

إن القرآن الكريم معجزة الإسلام الدائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو الذي يمد المسلمين في أي زمان ومكان بمعطيات يظن الإنسان أنه قد اكتشفها بعلمه وفهمه وبحثه وجده ، فقد كان القرآن لمن قبلنا نور وهداية ودستور ، والقرآن لنا نوراً وهداية ودستوراً ، ولمن سيلحق بنا ومن سيلحق بهم ، جميعاً فإن القرآن الكريم هداية ودستور ونور متجدد ، معطاء شفاء لما في النفوس والصدور . حفظه الله تعالى بإرادته وأمره فكان معجزة وهو اليوم معجزة وللاحقين معجزة . ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨) ﴾ [الإسراء] .

القرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه ، وفي علومه وحكمه ، وفي تأثير هدايته ، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية ، وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفي كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول ، وقد تحدى محمد رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي العرب بإعجازه ، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله ، فظهر عجزهم على شدة حرص بلاغتهم على إيصال دعوته ، واجتثاث نبتته ، ونقل جميع المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضاً . وقد نقل بعض أهل التصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة في القول ؛ أنهم تصدوا لمعارضة القرآن على بلاغته ومحاكاته في فصاحته دون هداية ، ولكنهم على ضعف رواية الناقلين عنهم لم يأتوا بشيء تقربه أعين الملاحدة والزنادقة فيحفظوه عنهم

---

(١) معالم المنهج الإسلامي ، مرجع سابق ص ٩٥ .

ويحتجوا به لإلحادهم وزندقتهم [1]. والقرآن آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب ، بل الجند الإلهي نشر له من الفضيلة علم وانضوت إليه من الأرواح مواكب ، وأغلقت دونه فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه " أعراف " الضمائر فابتز أنفالها [2]. فكم صدوا سبيلها صداً ، ومن ذا يدافع عن السيل إذا هدر ؟ واعترضوه بالألسنة رداً ولعمرى من يرد على الله القدر ؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب [3] وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب ، فما كان إلاّ نور الشمس : لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يضيع منه قطرة في سقائه ، ويلقى الصبي غطاء وليخفيه بحجابه ، ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه . وهو القرآن كم ظنوا ـ مما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر ـ كل ظن في الحقيقة آثم ، بل كل ظنٍ بالحقيقة كافر ، وحسبوه أمراً هيناً لأنه الأرض على بشر .. إلخ [4] .

والحقيقة أن أمة الإسلام التي أكرمها الله تعالى بالقرآن ، وأكرمها بحفظه ، وأكرمها بأن فتح قلوب المسلمين لحفظه واستيعابه ، وجمع كلمة المسلمين كافة عليه أنه هو مصدر المعرفة وأساس العالم ونور اليقين ، ونور البصر والبصيرة ، لا تملك أية أمة من الأمم مهما أوتيت من نعم الله في الأكل والملبس والطبيعة والاختراع والمدنية ـ لا تساوي كلها آية من آيات الله في كتابه ، فكل نعيم الدنيا إلى زوال وآيات الله في قرآنه خالدة أبد الدهر وطول الزمان ، ومجريات الحياة حتى قيام الساعة .. إن توازت الأمم بالعلوم والمعارف والحضارات ارتفعت أمة الإسلام بالقرآن إلى أعلى عليين .. بل إلى عنان السماء بما اختصها الله تعالى بهذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتتساقط الإنجازات الحضارية والمدنية والإبداعات العقلية أمام ارتقاء العقل المسلم بحفظ كتاب الله تعالى ، والعمل ولو بالقليل منه ـ ناهيك عن ارتقاء الأمة كلما مشت أشواطاً بالأخذ من هذا الكتاب لحياتها وآخرتها ، ولبناء حضارتها ورقي أجيالها والارتقاء بالعلم والمعرفة والثقافة لتختص بالخيرية من دون الناس .

---

(١) إعجاز القرآن .. مصطفى صادق الرافعي ـ مقدمة بقلم محمد رشيد رضا ص ١٧ ـ ١٨ .

(٢) الأعراف : الأمكنة العالية . جمع عرف " بضم فسكون " والأنفال : الغنائم جمع نفل " بفتحتين " والمراد أن ضمائر العرب قنعت عن القرآن بما استوعر فيه من العادات والأخلاق فنفذ إليها وابتزها وغلبها على أمرها ، والأعراف والأنفال أيضاً السورتان المذكورتان بالقرآن الكريم رقم ٧ ـ ٨ .

(٣) إذا تصاولت الفحول من الإبل تخاطرت بأذنابها كأنها يهدد بعضها بعضاً .

(٤) معالم المنهج الإسلامي ، مرجع سابق ص ٢٩ .